يسوع التاريخ

حوارٌ مع تراثنا الآبائي

دكتور

جورج حبيب باوي

٢٠١٤

www.coptology.org

ماذا نتعلم من الهرطقات القديمة؟

هذه السطور ليست رداً على أحد معين، ولكنها ملاحظات عامة على مَسْحٍ شامل لما أسمع وما أقرأ وما يدور من حوار، ليس فقط على موقع الدراسات القبطية، ولكن على مواقع أخرى، وما يصلني من إصدارات قبطية في السنوات الماضية.

فصل التاريخ عن الإيمان في مدارس الغنوسية:

كراهية الجسد واعتبار العالم المادي المنظور هو خلق الإله الشرير (إله العهد القديم) جعل الغنوصيون يضعون المعرفة قبل الإيمان، بل وأن تصبح بديلاً للإيمان، ومن هنا جاء الإسم اليوناني "الغنوصية" أو "العرفانية" حسب ترجمة أستاذنا د. باهور لبيب.

ويسوع –لدى الغنوصيين– هو الإنسان المولود الذي تحول إلى روح في معموديته وصار المسيح، وبذلك لم يعد للأناجيل كلها قيمة، لذلك حذف الغنوصيون أناجيل متى – مرقس – لوقا، ونشروا نسخةً معدَّلةً من إنجيل يوحنا، كما رفضوا كل رسائل بولس ما عدا رومية وغلاطية باعتبار أنها ضد إله العهد القديم الإله الشرير خالق العالم المادي.

لم نسمع عن تجمعات غنوصية بعد نهاية القرن الثالث؛ لأن هؤلاء "المناكيد" رفضوا الزواج واعتبروه شراً، وأدَّى ذلك إلى تقلص وجودهم البشري. لكن الأفكار لم تمت. فقد ظلَّ يسوع مزعجاً جداً لكل مَن يكره الجسد، ولم يكن هؤلاء من خارج الجماعة المسيحية، بل من داخل الكنيسة مثل أوطاخي ونسطور، وإذا كان الأول قد أذاب الناسوت في اللاهوت لأنه يكره الناسوت، فالثاني قاوم الاتحاد بكل ما يملك من فصاحة وبلاغة وقدرة شيطانية على اللعب بكلمات الأسفار المقدسة.

كما دخلت الغنوصية في النسك أيضاً، وقد تمثَّل ذلك في الهرب من الجسد واعتباره "العدو" أو "الخصم"، وفي اعتبار أن عدم الزواج أرفع شأناً من الزواج، بل وفي

العودة إلى فرائض الشريعة الخاصة بالجسد من اغتسالات وعلاقات إنسانية مثل الزواج لتأكيد "دونية" الزواج؛ لأن "الجسد" حقيرٌ ودنيء، مع أن الأرثوذكسية الحقة تؤكد أن خلاصنا تم بواسطة الجسد الذي اتحد به الله الكلمة، وأنه، أي الجسد هبة المحبة في الإفخارستيا.

إن يسوع التاريخ هو المولود في بيت لحم، الذي بدون ولادته، لا ولادة لنا من فوق. الولادة من مريم البتول حدثٌ تاريخي، ولكنه أدخل الإلوهة في التاريخ، وجعل للجنس البشري بدايةً جديدة في "آدم الأخير" أو "الثاني".

الاسم والوظيفة

* فقد وُلِدَ لكي نولد نحن. وُلِدَ من الروح القدس لكي نولد نحن من الآب، ويبقى اسم يسوع حسب (فيلبي ٢: ٦) "لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة (في العالم المنظور وغير المنظور) ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو ربٌّ لمجد الله الآب" (راجع فيلبي ٢: ١١). ولعلنا نلاحظ أن الابن له المجد لم يسمى المسيح، بل "يسوع" (متى ١: ٢١)، واسم "يسوع" هو الاسم الذي يحوي تاريخ الخلاص، بل هو جوهر البشارة؛ "لأنه يخلص شعبه من خطاياهم". وقد نال يسوع المسحة في الأردن، فدُعي "المسيح"، وهو لقبٌ خاصٌ بالوظيفة، فهو ليس اسماً شخصياً، ولكنه صار لقباً يضاف مع الاسم الشخصي، فصار يسوع هو المسيح –ليس حسب ادعاء الغنوصية، بل حسب تدبير الخلاص– لكي يُشرك الروح القدس، روح الآب في تدبير الخلاص؛ لكي نُمسح نحن مثله بذات المسحة وندعى لذلك السبب "مسحاء" أو "مسيحيين"؛ لأننا مسيحيون حسب تعبير رسول المسيح يوحنا: "المسحة التي أخذتموها منه ثابتة فيكم" (١يوحنا ٢: ٢٧). بل عندما يقول بولس: "ليس أحد يقدر أن يقول يسوع هو الرب إلَّا بالروح القدس" (١كو ١٢: ٣)، عندئذٍ يكون النطق بالاسم التاريخي هو شهادة الروح القدس ليسوع، ولذلك يمسحنا روح يسوع لكي نعترف به ربَّاً، وبذلك تتم مسحته وتكمل فينا.

الجسد والقيامة

* وقد صُلِبَ الرب يسوع بالجسد لكي في جسده المولود من البتول يسحق الموت، وهو ذات الجسد الذي قام، فلا قيامة إذا كان الجسد قد اختفى، أو ذاب في اللاهوت، أو فسد في القبر. لا قيامة إلَّا بالجسد، **وأي حديثٍ عن القيامة هو حديثٌ عن الجسد،** وهذا ما لا يقبله الهراطقة جميعاً؛ لأن تحول جسد يسوع إلى روح، هو ما يريح الضمائر المتعَبة من الجسد، والتي لا تسعى من أجل تجلي الجسد لكي يكون حسب جسد يسوع؛ لذا يعُد تعبير الرسول بولس: "جسد مجده" (فيلبي ٣: ٢١)، تعبير صادم للهراطقة الغنوصيين؛ لأن هذا الجسد هو ذات الجسد الذي سوف نتغير نحن لنكون على صورته.

الكنيسة جسد المسيح

* الكنيسة جسد يسوع التاريخي؛ لأننا أخوة يسوع بالجسد وبالروح: بالجسد؛ لأننا وُلدنا من جديد، وبالروح؛ لأننا بالولادة الجديدة من فوق في المعمودية والمسحة قد دخلنا الواقع الجديد، واقع "الخلقة الجديدة" (٢كو ٥: ١٧)، ويبقى اللحم والدم هو لحم ودم يسوع؛ "لأننا من لحمه وعظامه" (أفسس ٥: ٣٠)، وهي الحقيقة التي لا يريد أحدٌ أن يجاهر بها بنفس قوة النعمة والتجديد، خوفاً من انهيار سلطان كهنوتي نشأ على حساب نعمة وعمل الثالوث القدوس نفسه.

الهجوم الإنجيلي المعاصر على السرائر، لا سيما الإفخارستيا:

هذا الهجوم هو هجومُ جهلٍ، وهو بعثٌ لغنوصية جديدة؛ لأنه يرتكز على قبول المسيح كفكرة وعقيدة في العقل، ويقف القبول عند ذلك. وفصل رأس الكنيسة عن الأعضاء هو فصلٌ أتاح للواعظ أن يصبح هو الرأس الذي يقود الجماعة؛ لأن العلاقة الإلهية – الإنسانية للمتجسد، تحوَّلت إلى نظام عقلي يدور في دائرة التعليم والتشديد على الوعظ، وانعدام ممارسة عشاء الرب، بل والسخرية منه، واعتبار أن الذكرى عقلية محضة، وأن الخبز والخمر يتحول في الإنسان عندما يتناول. وهكذا استُبعِدَ عمل الروح

القدس الذي كوَّن إنسانية المسيح ومسحه في الأردن وقدمه للآب (عب ٩: ١٣-١٤)، بل وأقامه من الأموات (رو ٨: ١١).

هذه الغنوصية لا تضع قوة الاتحاد في النعمة، بل في قراءة الأسفار والصلاة والانشغال الفكري. هذه أمورٌ جديدة، ولكن تتبدى خطورتها في أن انعدام المواجهة والشركة في الحياة الإلهية، يحول كل هؤلاء إلى موعوظين، لم ينالوا بعد الولادة من فوق – أي الولادة في المعمودية. ومَن لا يولد من المعمودية يكون قد وَلَدَ نفسه بإرادته وتوبته هو، وُلِدَ من كيانه ولم يولد من الله. هذا لا ينفي التوبة والإيمان، لكن التوبة هي دعوة لشركة كيانية في المسيح، والإيمان هو تناول الرب والاشتراك في أقنومه الإلهي المتجسد.

هكذا عادت الغنوصية باسم جديد.

الشخص والاسم، والحقيقة الأبدية:

جاءت الأريوسية، ومن بعدها الأنومية باختراعٍ جديد، وهو يعود أصلاً إلى فكرة أرسطو عن أن اختلاف الأسماء يعني بالضرورة اختلاف الطبائع، فكل اسم يدل على طبيعة؛ لأن اسم الحصان أو الأسد أو الحمار أو الماء .... هذه أسماء تدل على طبائع مختلفة .. من هنا جاءت الأريوسية أولاً لتقول إن اسم الآب ليس هو اسم الابن. فكيف يكون للآب والابن طبيعة واحدة إلهية طالما أن الأسماء اختلفت؟ هذه زاوية علوم الطبيعة، وهي نظامٌ جديد يحدد ملامح الموجودات من أجل فهم كل الكائنات، لكن هل هذا النظام العقلي ينطبق على الثالوث؟ بكل تأكيد لا، ليس لأن الله فوق كل الطبائع فقط، بل أيضاً لأن الله هو خالق النظام نفسه، فهو لا يخضع لذات النظام؛ لأن النظام خاص بالعالم المادي المنظور، وهو نظام "معرفي" خاص بما هو منظور.

جاء رد الآباء على ذلك من ذات فلسفة أرسطو، بأن الآب لا يكون الآب الحقيقي بدون الابن، لأن الاسماء تحدد أيضاً علاقات، فلا وجود للآب بدون الابن، فاسم الآب والابن هو اسم علاقة في الثالوث، ولذلك لا يمكن فصل الآب عن الابن ... ولكن هل ماتت الهرطقة؟ بكل تأكيد لا، بل ظهرت تحت اسم عقيدة الفداء والكفارة، إذ تحول المسيح إلى "ثمن" يُدفع للآب؛ لأنه غريبٌ، وله طبيعة غير طبيعة

الآب، ولذلك هو يسترضي الآب، ويفدي الآب من غضبه، وبالتالي ضاعت العلاقة الثالوثية.

وجاءت الأنومية الجديدة باختراع اسماء بلا كيانات، أي أسماء ليس لها من الاسم سوى اللفظ، مثل: النعمة – الطاقة – القوة. وبكل أسفٍ، عندما يكتب أحد الأحباء عن الشخص الإفخارستي، أو المسيح الكاثوليكي الجامع، أو أيَّاً ما يمكن أن يضاف من أسماء أخرى، فإننا يجب أن نكون على حذر، هل هذا اسمٌ له كيان، أم أنه مجرد نطق أو صوت بلا كيان؟ النعمة ليست اسماً فقط، بل هي عملٌ يعمله الثالوث فينا، ولذلك، النعمة دائماً "معرَّفة" مثل نعمة التبني، فهي ليست النعمة مجردة، وأيضاً نعمة الغفران – نعمة التبرير – نعمة التقديس .... الخ.

والحلول المواهبي، أو الحلول النعموي، أو أي اسم آخر، هل له كيان أو عمل، أم أنه مجرد نطق مثل إطلاق الأسماء على الأشخاص مثل كريم – أبو الكرم – وغيرها توصف بأنها "اسم الكنية"؟

لنكن على حذرٍ لئلا ندخل ذات النفق العقلي المظلم الذي شقه الهراطقة قبلنا، وإلَّا وجدنا أمامنا:

١– أسماء بلا كيان.

٢– ألقاب تفصل الله الثالوث عن الإنسان.

٣– شرحٌ عام، مثل النعمة دون تحديد.

٤– التدرج من اختفاء يسوع اللحم والدم الذي يتجلى بقوة القيامة. إلى اختفاء مجد الإنسان الجديد الذي هو إنسان بمجد لحمه ودمه بقوة اللاهوت وبحياة اللاهوت، فصار في عدم فساد، وصار جسداً محيياً، انتهاءً إلى أن يصبح يسوع مجرد فكرة في رأس قائلها أو الواعظ بها.

٥– إنكار تجسد ابن الله بشكل ظاهر، وحصر الفداء في مركزية موت الرب على الصليب، وكأن الاتحاد بنا في تجسده هو بلا قيمة، بينما جاء الصلب لكي يجعل هذا الإتحاد أبدياً؛ إذ رفع أول عائق وهو الموت، وثانِ عائق وهو الفساد، إذ قام الابن بعدم فساد. كل هذا حدث في الجسد، فالصليب في الجسد، والقيامة هي قيامة الجسد

.. هذه ثوابت لو زحزحها أحد، لتحولت المسيحية إلى ثقافة عقلية بلا مضمون، بلا واقع، بلا حياة، وصارت مذهباً أخلاقياً يحرر العقول، ولا يحرر كيان الإنسان من الموت، ولا يعطي له التجديد .. هل نحن سائرون في هذا النفق؟

٦- يجب أن يبقى اسم "يسوع" وأن تبقى الإضافة "المسيح"؛ لأن الاسم هو الشخص، والإضافة هي الوظيفة أو العمل، ولا يمكن فصل الاسم عن الشخص، أو الممسوع من الآب لأجلنا عن عمله؛ لأن "يسوع يخلص شعبه من خطاياهم".

مدارس الهرطقات القديمة ومنهج التفكير الانتقائي:

يجب الانتباه جيداً إلى أن اسم الهرطقة هو اسم يوناني الأصل والفعل اليوناني αίρέω بمعنى يختار أو ينتقي، وقد ورد عدة مرات في العهد الجديد منها على سبيل المثال لا الحصر (فيلبي ١: ٢٢ — ٢ تس ٢: ١٣)، والاختيار عند فئة من الذين آمنوا مبني:

أولاً: على رفضٍ يؤدي إلى اختيار.

ثانياً: إنه اختيارُ أجزاء معينة، وعناد وإصرار -في ذات الوقت- على رفض الكل. وذلك مثل اختيار الأبيونية -وهي حركة تهود ظهرت في القرن الأول- لإنسانية المسيح ورفض إلوهيته، وحفظ يوم السبت وبقاء شريعة موسى.

ثالثاً: والاختيار والرفض ليس مبنياً على ما أُعلن، بل على خلفيات ثقافية ولغوية ودينية سابقة ***Pre-Conceived*** وتفرض هذه الأفكار المسبقة الواردة من الثقافة والخبرة الدينية السابقة رؤيا غير الرؤيا التي جاء بها تجسد ابن الله الكلمة. على سبيل المثال، المشكلة الكبرى التي ظهرت في خدمة الرسل، وهي انضمام بعض اليهود إلى الإيمان، ومحاولة فرض العادات اليهودية والممارسات الطقسية، بل والختان نفسه على الذين وصفهم سفر الأعمال بـ "الراجعين إلى الله من الأمم"، ولذلك عُقِدَ المجمع الرسولي الأول (راجع أع ص ١٥)، والذي حرر الأمم من الالتزام بشريعة موسى. هكذا جاءت الخبرة الدينية والأفكار المسبقة ***Presupposed Ideas*** بذلك الصراع الذي لم ينتهِ من الكنيسة طوال ٣٠٠ سنة.

الإنتقاء هنا لأسباب مسبقة، أي سابقة على قبول الإيمان، وتفرض نفسها على الإيمان، أي التعليم نفسه، وتختار ما يلائم الخبرة القديمة وترفض ما يبدو متعارضاً معها.

فبسبب كراهية الجسد رفض ابولیناریوس –وهو من أكبر مثقفي عصره، حيث أعاد كتابة الترجمة السبعينية على غرار الشعر والأدب اليوناني القديم للتدريس في المدارس التي تتبع الكنيسة– ولكنه كان يرى التجسد اتحاد اللوغوس *Logos* الكلمة بالجسد فقط وبدون نفس إنسانية؛ لأن العقل الإنساني هو مصدر الشر، ولا يمكن أن يكون المتجسد صالحاً وبلا شر إذا وُجِدَ فيه عقل إنساني؛ لأن هذا يعرضه للخطية، وكأن وجود الفكر الإنساني الحر هو مشكلة لا يمكن أن يتغلب عليها الابن، أو أن إرادته الإنسانية النابعة من النفس والعقل يمكن أن تميل إلى الشر، ولذلك وجب الاستغناء عن الإرادة والعقل والنفس وكل مكونات الحياة الإنسانية، وكأن البتر *Amputation* هو الحل.

وجاء اعتراض الآباء جميعاً، وحُكِمَ على التعليم في مجمع مكاني في الإسكندرية في عام ٣٦٢ حضره الأسقف البابا أثناسيوس. ولذلك، فإن اتهام أثناسيوس وكيرلس الكبير بقبول تعليم ابولیناریوس هو خطأ تاريخي لا يقع فيه إلَّا الصغار؛ لأن وجود مجمع مكاني رَفَضَ التعليم هو علامة فارقة لا يمكن تجاوزها. وقد جاء رد القديس غريغوريوس النيزينزي في عبارة موجزة: "ما لم يتخذه (الكلمة الابن) لم يُشفَ وما لم يتحد به لم يخلص" (الرسالة ١٠١).

مجمل الهرطقة، وهو جوهر كل الهرطقات:

يمكننا أن نلخص جوهر الهرطقات كلها في "**الخلاص من الخارج**"، أي العمل الذي يقوم به الابن المتجسد خارج إنسانيته هو، أي إنسانيته الذاتية الخاصة به؛ لأنه عمل يتم خارج ما هو إنساني ... أما الأرثوذكسية، فهي الخلاص والشفاء ورد الحياة بالاتحاد. هي خلاصٌ من الداخل، أي شفاء الأمراض، وإقامة الموتى، غفران الخطايا (تحرير الطبيعة الانسانية)، كل هذا يتم في الإنسان. أمَّا من الداخل، فهو يعني القضاء على الموت في إنسانية يسوع التاريخ نفسه؛ لكي يبقى يسوع التاريخ هو الحياة الغالبة في الإنسانية التي أخذها من البتول.

كل الهراطقة الذين انكروا التجسد وجدوا في العودة إلى الشريعة (الأبيونية) طريق الخلاص – خلاص بدون المسيح.

إنكار إلوهية المخلص (الأريوسية)؛ لأن الخلاص هو تقدُّم أخلاقي، روماني – يوناني، حسب مقاييس الشهامة والرجولة والأخلاق النبيلة السائدة في المجتمع الروماني اليوناني في الإمبراطورية. وقد عاد إلى هذه المقولة الإمبراطور يوليانوس الجاحد الذي أراد أن يبعث الوثنية بعد أن كادت تلفظ أنفاسها.

ويجب ضم الغنوصية إلى الأريوسية؛ لأن الخلاص بالمعرفة يعني عدم حاجة الإنسان إلى الوحي أو مخلص، بل إلى طريق النُّسك والتأمل الذي يدخله الإنسان بقدراته الروحية.

ولا يوجد فرق جوهري بين كل مدارس الغنوصية وكل الهرطقات؛ لأن القاعدة العامة التي تجمع الكل هي كراهية الجسد التي تثمر بعد ذلك عند أهم ثلاثة من قادة كراهية الجسد: ابولیناریوس – اوطاخي – نسطور، وإن كان نسطور قد رفض الاتحاد لأسباب فلسفية بحتة، بسبب معرفته بفلسفة أرسطو التي فرضها على اللاهوت، إلَّا أن النتيجة هي واحدة، سواء ذاب الناسوت في اللاهوت، أو انفصل الناسوت عن اللاهوت، فالواقع هو أنه لا يوجد لدينا مخلص هو إلهٌ متجسد.

الخلاص، كعملٍ خارج إنسانية الرب نفسه:

إن رفض التجسد يظهر في كيفية قبول التجسد والمتجسد ذاته، أي الرب نفسه، وهذا ما نراه عبر سنوات امتدت من العصر الرسولي، بل ابتداءً من رفض بطرس لصلب يسوع: "حاشاك يا رب" إلى العصر الحديث.

أولاً: تحول الصلب إلى "ثمنٍ" يُدفع للآب. وهي فكرة تجارية بحتة لا وجود لها في العهد الجديد، يدافع عنها باستماتة، بل وبعنف كل الذين سقطوا فريسة التجريد *Abstraction* أي تحول شخص المسيح يسوع إلى فكرة، وهي الثمن. ولم يسأل هؤلاء كيف يمكن لشخص أن يصبح ثمناً؟ وخلف هذا بكل تأكيد جهلٌ بمعنى الـ"فدية"؛ لأن عدم الإيمان بإلوهية يسوع هي التي تجعل يسوع ثمناً، وكأنه ليس هو الخالق الذي يملك

كل الكائنات، وأن تجسده لم يجعله يفقد إلوهيته.

ثانياً: والثمن يحول عمل المخلص والخلاص برمته إلى عملٍ خارج الحياة الإنسانية، ويوجِّه العمل إلى الآب، وينسى -بحكم الفكرة التجارية- علاقة الروح القدس الذي "كوَّن" ناسوت الرب ومسحه في الأردن وقدَّمه لنا "المسيح"، وبه، أي بالروح صُلب (عب ٩: ١٣-١٤)، وهو أيضاً الذي أقامه من الأموات (رو ٨: ١١).

وفقدان العلاقة الشخصية يخلع المعمودية من جذرها، لأن هذا لا يجعل منها صلب وموت ودفن وقيامة مع المسيح (رو ٦: ١-٨)؛ لأن أصحاب هذه الفكرة التجارية يعثرون دائماً أمام قوة كلمات (رو ٦: ١-٨).

ثالثاً: وإنكار التجسد والمتجسد يتم بشكل آخر، وهو فقدان الأهمية الأبدية والقصوى للاتحاد الأقنومي. اتحاد لا يقبل الانقسام ولا الامتزاج (السبيكة المعدنية التي يمتزج فيها معدن مع معدن آخر). ففي بطن العذراء، وفي مياه الأردن، وعلى الصليب، وفي القبر، يسوع هو الإله المتجسد؛ لأن الانفصال هو العدو الذي جاء يسوع ليقضي عليه؛ لأن الانفصال هو أحد ثمرات الموت.

وإنكار الإتحاد الأقنومي يعود أصلاً إلى الأريوسية، ثم النسطورية، ولكن الشكل الجديد، أي ذات الخط القديم الظاهر بوضوح في زماننا لإنكار الإتحاد الأقنومي، هو بكل يقين المجاهرة بالقول بتناول الناسوت وحده في الإفخارستيا. ونفس الإنكار يظهر أيضاً في تحول النعمة إلى فكرة مجردة *Abstract* أي إلى ما يشبه رضى الله بالإنسان، أو حتى في القول بأن التبرير هو إعلان براءة الإنسان. ولو قال هؤلاء إن براءة الإنسان هي في المسيح "لكان الانحراف أقل خطراً"؛ لأنه لا براءة ولا قبول ولا نعمة خارج المسيح.

الغنوصية في شكلها الحديث:

فصلت مدرسة فالنتيان[١] يسوع الإنسان المادي عن المسيح الروح السمائي.

---

(١) حسب العلامة ترتليان، كان Valantinus (حوالي ١٠٠-١٦٠) هو أحد المرشحين لأسقفية روما .. كان له مدرسة في الاسكندرية واستقر بعد ذلك في قبرص. يُعدُّ انجيل الحق الذي اكتشف في نجع حمادي، وهو من مؤلفات القرن الثالث، وأشار اليه القديس ايريناوس (ضد الهرطقات ٣: ١١ و٢٩) هو الوثيقة الغنوصية التي كشفت عن كراهية الجسد ونبذ يسوع كإنسان كامل الإنسانية.

واعتبرت أن هذا الفصل تم في المعمودية عندما اختفى ذلك الإنسان، وحلَّ مكانه المسيح الكائن الروحي. أما بالنسبة للأرثوذكسية، فيسوع الانسان هو الأساس الإلهي لكل ما نملك؛ لأن ما حدث في حياة يسوع الانسان هو ينابيع الخلاص التي تأتي من اللاهوت نفسه، والذي يحول الناسوت منذ الحَبَل إلى الصعود، تحولاً كيانياً من الموت إلى الخلود، ومن الضعف إلى القوة، ومن اعتماد الحياة الإنسانية على الطعام والماء والهواء والملابس والنوم، إلى الحياة الانسانية المتألِّهة السمائية التي تبدأ بالقيامة وتنال المجد الإلهي بالصعود. فقبل القيامة كان الجسد قابلاً للموت، ونزف دماً على الصليب وتعب وعرق في البستان، بل وبكى (عب ٥: ٧)، ولكنه بعد أن قام صار عديم الألم ويعطي الحياة ويمنح الشفاء، ويجود بالخلود لكل من يتحد به في السرائر.

أنكرت الغنوصية يسوع التاريخ من أجل مسيح السماء، وأنكرت إنسانيته، فتحول الخلاص إلى هروب إلى عالم فكري نفساني، لا تجديد الكيان ذات التجديد الذي تم كاملاً في يسوع لكي يُنقل إلينا كاملاً ويُستعلن كماله في اليوم الأخير.

فما هو الشكل والمضمون الغنوصي المعاصر لنا؟

أولاً: هو كل دعوة تنادي بالتجديد الأخلاقي الذي لا علاقة له بالتحول الكياني في التائبين والراجعين إلى شركتنا في الثالوث، وإلى اعتبار السلوك الجديد: عدم الكذب – العفة .. الخ، وهو أمرٌ جيد جداً، ولكنه ليس الحياة المسيحية الحقيقية التي يتحول فيها الكيان من العبودية إلى "حرية أولاد الله"، أي حياة شركة كيانية في المسيح يسوع نفسه[١] أما عنصر الشركة الواضح مع الغنوصية، فهو المجال الفكري والنفساني الذي يُسمى "روحاني"، وهو ليس له علاقة بالمرة بما هو "روحاني"؛ لأن الروحاني أو "الروحي" ليس هو الأخلاقي، بل الامتلاء من الروح القدس.

ثانياً: هو التعليم السائد الذي حوَّل شخص أقنوم الله الكلمة إلى فكرة يقبلها العقل. والقبول العقلي مطلوب؛ لأنه بداية الاتحاد بالشخص، لكن المواجهة ليست مع تعليم عن يسوع، بل هي مع يسوع الإله المتجسد الكائن معنا وفينا. "ومعنا" ليست

---

(١) راجع دراستنا بعنوان: الكنيسة جسد المسيح، المسيح والمسيحي وشركة الجسد الواحد، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٤ – منشورة على موقع www.coptology.com

حقيقة أخرى مختلفة عن "فينا"؛ لأنه كامنٌ سرياً في كل مؤمن حتى وإن كانت حياته بلا فاعلية؛ لأن حياته تسري فعلاً وبكل حق في كل من نال سر الحميم الجديد، ومُسِحَ بمسحة يسوع أي الميرون. ولذلك، عندما تنطلق التراتيل التي تدور كلها حول يسوع الذي صُلب ودفع الديون، أو طفل المزود، وغيرها من نفاية عصور الانحطاط الروحي الذي جاءت به حركات النهضة التي دخلت بلادنا[1] فإن الإنسان يدخل مجالاً عقلياً نفسانياً يدور فيه لسنوات إلى أن يصحو يوماً ويكتشف أن يسوع ليس في السماء فقط، بل فيه هو أيضاً، ذلك لأن الغنوصية الحديثة هي فصل الروح عن الجسد، وتحول المسيحية إلى دعوة فكرية أخلاقية.

تمييز الهرطقات في الأصولية المعاصرة:

١– هل نحن بعيدين تماماً عن دعوة التهود؟ أليست كل دعوة للإبقاء على ما ورد في العهد القديم، لا سيما شرائع التطهيرات الجسدية هو ذات جوهر الأبيونية. إذا كان لنا تطهير آخر غير ذلك التطهير الذي يُعطى بالروح القدس، وبالشركة في الجسد والدم في الافخارستيا .. ألا نكون عندئذٍ من أتباع حركة التهود؟

٢– هل نكون تجاوزنا الغنوصية؛ إذا ظل الجسد عندنا هو مصدر الشر؟ بل وعندما يتمسك البعض بخطأٍ وقع فيه القديس أوغسطينوس، وهو انتقال الخطية بالوراثة، وهو ذات مذهب ماني ومدارس الغنوصية، ويفرض هذا الخطأ على أنه الأرثوذكسية، ألم نعد إلى ذات عقلية القرون الأولى؟ وإذا أصر هؤلاء على أن الخطية فعلٌ يورَّث، ألا يسير هذا في ذات اتجاه تجريم الجسد؟

٣– وعندما يحاصَر ربَّ التاريخ في حدثٍ واحدٍ، وهو الصلب، ويصبح صلب المسيح هو أساس الخلاص، ونترك التجسد، أي اتحاد اللاهوت بالإنسانية – القيامة – الصعود، ألا يؤدي فرض الحصار على يسوع بأنه صلب منذ ألفي عام إلى اعتبار الصلب والمصلوب فكرة غيابية لا حضور حقيقياً لها في الواقع، وبذلك تغيب عنا إنسانية يسوع الحاضرة والحية معنا وفينا لأنها إنسانية الإله الذي جاء لكي يوحِّدنا بالآب وبالروح

---

(١) سمعت مرةً صمويل دكتوريال يرتل قائلاً: يا اخوتي يوم الحساب تبكي الجبال والهضاب لأنه يوم العقاب ... الخ!!

القدس؟

٤– ومهما قيل دفاعاً عن الحلول المواهبي بكل ما في اللغة من حيَلٍ وتدليس .. أليس هذا التعليم هو إنكار حلول الله فينا، وحلول الله فينا هو امتداد للتجسد؛ لأن "ملء اللاهوت يحل فيه وأنتم مملؤون فيه" (كولوسي ٢: ٩–١٠)؟ أليس هذا محاولة لإنكار التجسد نفسه الذي فتح لنا الاتحاد بالله؟

بكلِّ ألمٍ كتبت هذه السطور؛ لأن الانهيار في التعليم واضح لمن عاش الحياة الليتورجية. ورغم جمال وعظمة دراسة د. مارك شنودة: الافخارستيا سر الحياة، إلَّا أن الحياة انقسمت إلى – حياة شكر – حياة فصحية – حياة إيمان – حياة صلاة – حياة شركة ... فكم حياة لنا؟ عملٌ عظيم، مبشِّرٌ بالخلاص، ولكن التقسيم أعادنا إلى العصر الوسيط، ودراسة أعظم ما صدر بالعربية ولكنها تحتاج إلى ربط يجعل الحياة واحدة مركزها يسوع وقوتها الروح القدس، وهو ما سيعجز عنه القارئ ويدركه الدارسون.

جورج حبيب بباوي

٥ ابريل ٢٠١٤